مجلة الدراسات الإفريقية ـ العدد ٢٥ (٢٠٠٢) : ٢٩١ - ٣١١

حول إطار نظرى لمستقبل اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور

د. كمال محمد جار الله

مقدمة :

تحاول هذه الورقة استنباط إطار نظرى يمكن من خلاله استشراف مستقبل اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور استناداً على ميادين الدراسات المستقبلية للعلوم ، وذلك عبر دارسة وقائع وضع هذه اللغات فى الماضى والحاضر ومن ثم محاولة تبنى فرضيات تقضى إلى تصور مستقبل نظرى لهذا اللغات .

ولكى تحقق هذه الورقة ما ترمى إليه فإنها ستفرد حيزاً للموضوعات التالية :

١- الوضع اللغويّ فى دارفور وتصنيف لغاتها .

٢- اللغات النيلية - الحصراوية فى دارفور .

٣- اللغات النيلية - الحصراوية فى دارفور فى مواجهة اللغة العربية .

٤- مستقبل اللغات النيلية - الحصراوية فى دارفور .

الوضع اللغوى فى دارفور وتصنيف لغاتها :

تمثل دارفور منطقة تقليذية تاريخية لعدد من اللغات مثل لغة الفور ولغة المساليت ولغة الزغاوة ولغة الداجو وغيرها على الرغم من أن هناك حيويا لهذه اللغات تقل وتكثر خارج منطقة دارفور تمت بفعل الهجرات الفردية والجماعية .

(*) شعبة اللغات الإفريقية ـ مركز البحوث والدراسات الإفريقية ـ جامعة إفريقيا العالمية .

ومما يلاحظ أن بدارفور لغات حية استطاعت أن تصمد فى ظل صراع حضارى طويل مثل اللغات التى عرفت بحكم الجغرافيا والتاريخ ارتباطا بالمنطقة التى ذكرنا منها طئفة قبل قليل ، وعلى العكس من ذلك فإن هنالك لغات أخرى عجزت عن مواصلة مسيرتها عبر حقب التاريخ انقرضت لتفسح المجال للعات غيرها أكثر فاعلية للحياة ، وأقدر على العيش بين رصيد معتبر من اللغات المحلية واللهجات العربية المتنوعة ، منها اللغات التالية : البرتى والبرقد والبيقو والقيلى (الفونجورو) [١] .

إن الخريطة اللغوية لدارفور تكشف لنا أن هناك فصيلتين لغويتين رئيستين ، الأولى هى مجموعة اللغات الدارفوريةوتمثل اللغات التقليدية والتاريخية بالمنطقة، وهو تصنيف جغرافى فى المقام الأول . والثانية تشمل اللغة العربية بلهجاتها المختلفة (بنى هلبه وهبانية وماهرية ومعاليا...) هذا إلى جانب بعض لغات غرب ووسط إفريقيا كالفولانى والهوسا والمبا (لغة البرقو) وبعض لغات جنوب السودان كالدينكا .

كم عدد اللغات المتحدثة فى دارفور ؟ هذا السؤال حاول بعض الباحثين الإجابة عن . يرى ثوال [٢] أن هناك على الأقل ست عشرة لغة محلية غير العربيةتتحذث فى دارفور وقد أقرنها بنسبة المتحدثين بها كلغة أم (العربية ٥٥٪ والفور ٢١٪ والمساليت ٥ . ١٢٪ والزغاوة ٥٪ من مجمل سكان دافور)[٣].

والحق أن تلك النسب التى أوردها ثلوال فى دارسته إنما تعبر عن مرحلة سابقة فى حياة دارفور . تلك الفترة التى أقيمت فيها الدراسة ، أما الآن وقد مر على دراسته عقدان ونيف حدثت فيهما تحولات كبرى أهما المجاعة والجفاف

والتصحر الذى ضرب دول إفريقيا جنوب الصحراء ٨٣ - ١٩٨٥، بالإضافة إلى ظروف دارفور الخاصة بها منزحف صحراوى وحروب مستمرة إلى الآن وصراعات قبلية مزمنة كل تلك ساعد ويساعد فى الهجرة والتجهير القسرى نحو المدن الكبرى بالولاية كنيالا والفاشر الجنينة بالإضافة إلى هجرة متزايدة نحو كردفان ووسط السوادن والعاصمة وربما حركة لجوء إلى الدول المجاورة ، ولا شك أن لهذه أثره على الوضع الديمغرافى وبالتالى اللغوى بالولاية.

وفى دارسة لغوية يورد لنا يوسف الخليفة أبو بكر والأمين أو منقا [٤] أثنين من لغات دارفور المحلية ذات الأكثرية المتحدثة فى السودان ، وهما : الفور (٦٦٣٩١٣ متحدث) ، والمساليت (٤٠٦٣١٠ متحدث) ، وذلك ضمن ثلاث عشرة لغة سودانية محلية غير العربية تتميز بأكثرية المتحدثين بها كلغات أم ، وذلك بعد أن اهتديا بما قدمه سيد حامد حريز وهيرمان بل (١٩٧٥) [٥] ، ثم حولا نسبة المتحدثين وعددهم من تعداد سكان السودان عام ١٩٥٦م إلى تعداد ١٩٩٣م حسابياً . غير أن مثل هذ الطريقة النظرية تعوزها الدقة فهى إذا صلحت فى بناء تقدير حسابي يقرب من فهم الوضع اللغوى في السودان ارتكازا على معلومات تاريخية قديمة فإنها لا تستبطن خصوصية دارفور التى تناولناها قبل قليل .

وبما أن كثيراً من الدراسات اللغوية - الاجتماعية التى أجريت حول الأوضاع اللغوية فى السوادن أفضت إلى اكتساح اللغة العربية لمساحات واسعة كانت وقفا للغات سودانية محلية دون استثناء لمناطق القطر كافة - فإن تلك الظروف البيئية وغيرها فى ولاية دارفور والتى تمت الإشارة إليها تكون قد ساعدت فى زعزعة التوزيع التقليدى التاريخى للقبائل بالمنطقة ، وعليه يتوقع أن تكون العربية قد

كسبت أرضا جديدة خلال العقدين السابقين من القرن الماضى فى مقابل انحسار للغات الدارفورية وغيرها [٦] وستناول وضع اللغة العربية فى دارفور فى وضع متأخر ضمن هذه الورقة .

نستنتج مما سبق ذكره عن اللغات فى دارفور أن هذه المنطقة بها عدد قليل من اللغات إذا قارناها - مثلا - بجنوب السودان الذي يعتبر امتدادا جغرافيا لما يسمى بالحزام شبه الصحراوى للتفتت اللغوى المنطلق منفكرة ديفيد دالبى الذى يعتبر أكثر مناطق العالم من حيث التعقيد والتباين اللغوى ويتحدث فيه ٢/٣ من مجمل اللغات فى إفريقيا [٧] .

سنحاول ههنا أن نصنف لغات دارفور وفقا لتصنيف عالم اللغة الأمريكى جوزيف غرينبيرج للغات إفريقيا التى ضمنها فى كتابه «لغات إفريقيا »

Language of Africa ، وهو تصنيف رائج فى بابه ويعتد بالعلاقة الوراثية. وقد رجعنا فى تناولنا لتصنيف لغات دارفور الإضافة إلى كتاب غرينبيرج - إلى عدد من الكتب والمقالات الخاصة باللغات والغويات الإفريقية والسودانية [٨] .

وكان نتاج ذلك أن وجدنا أن بدارفورلغات تنتمى لثلاث أسر من الأسر الأربع التى صنف بها غرينبيرج لغات إفريقيا (عدا الكويسانية) ، وهى :

١- أسرة اللغات الإفريقية والآسيوية .

٢- أسرة اللغات النيجر - كردفانية .

٣- أسرة اللغات النيلية - الحصراوية .

وبما أن للأسرة الأخيرة نصيب الأسد من اللغات بدارفور كما هو الحال نفسه بالنسبة للغات فى عموم السودان (تقدر بحوالى ٧٠ ٪) فسوف يتم التركيز

عليها فى الموضوع التالى ضمن هذه الدراسة باعتبارها (الأسرة) قضية أساسية فيها (الدراسة) بينما سنشير إلى الأسرتين الأخريين إشارات غير متأنية .

تتمثل أسرة الإفريقية والآسيوية فى دارفور بثلاثة أفرع وهى [٩] .

١- السامى وتمثله العربية بلهجاتها المختلفة .

٢- التشادى وتمثله الهوسا .

٣- البربرى ، وتمثله الطارقية (التماشيك) [١٠] .

إما أسرة اللغات النيجر - كردفانية فتمثلها على الأقل فى دار فور لغة واحدة ، وهى اللغة الفولانية التى تندرج تحت فرع غرب الأطلسى ، وبذا تكون هذه الأسرة أقل الأسرة حضوراً فى دارفور .

٣- اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور :

تسجيل اللغات النيلية - الصحراوية حضوراً كبيراً فى دارفور بغرب السودان ، ووفقاً لتصنيف غرينبيرج الذى تبنيناه فى هذه الورقة فإن هذه الأسرة حظيت بتمثيل أربعة أفرع من ستة [١١] . وبالإمكان تفصيل ذلك فيما يلى :

١- الفور ، وتمثله لغة الفور .

٢- الصحراوى وتمثله البرتى (منقرضة) والزغاوة والبديات والتيدا والدزا والكانورى .

٣- المبا ، وتمثله المساليت والمبا (لغة البرقو) والميما (منقرضة) .

٤- الشارى - نيلى ، وهو فرع تندرج تحته اللغات السودانية الشرقية التى تنفلق إلى التاما والداجو والنوبية لتنشطر التاما إلى التاما والمرايت والقمر والإرينقا والدادنقا . وتنشطر النوبية إلى الميدون والبرقد (منقرضة) .

وبما أنه ليس هناك إحصاءات علمية حول المتحدثين بهذه اللغات فى دارفور فإن هناك دارسة تدرج لغتين نيليتين - صحراويتين بدارفور وهما الفور والمساليت ضمن اللغات المحلية ذات الأكثرية المتحدثة فى السودان [١٢] . وقد نستشهد بهذه الجزئية مرارا وتكراراً .

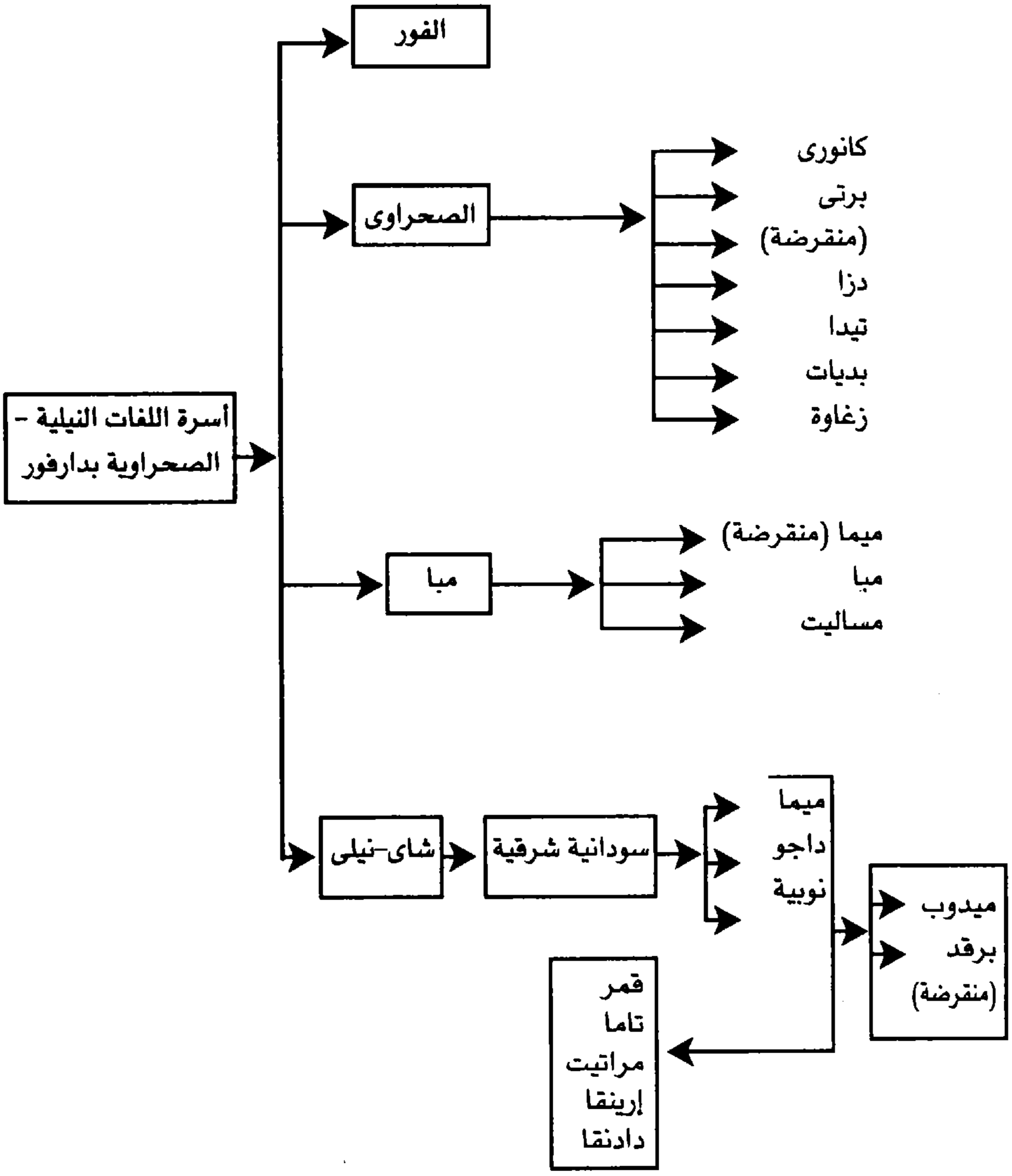

شكل يوضح أسرة اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور

كيفما كان الحال ، وارتكازا على ما أجملنا سابقاً نستطيع أن نعرض اللغات النيلـيـة - الصـحراوية فى دارفـور فى الشكل التـالى ثم نعلق على بعض مانلاحظه فيه :

إذا تمعنا الشكل السابق يمكننا زن نخرج بالملاحظات التالية :

١- تتمثل أسرة اللغات النيلية - الصحراوية على الأقل بأربعة أفرع فى دارفور وهى الفور والمبا والشارى - نيلى والصحراوى .

٢-أن فرع الشارى - نيلى يستأثر بأكبر عدد من اللغات فى دارفور (مجموعة اللغات السودانوية الشرقية) . وهذا الفرع على مستوى اللغات النيلية - الصحراوية يحتوى على معظم اللغات داخلها (١٣) .

٤- اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفورفى مواجهة اللغة العربية :

يتحتم علينا قبل أن نضع العنوان أعلاه فى إطار التناول أو نفرد حيزاً لتاريخ اللغة العربية فى دارفور ووضعها ثم ندلف إلى وضع هذه اللغات ومن بعد ذلك نسعى إلى معالجة موضوع هذه اللغات فى مواجهة العربية .

من خلال ما توفر لنا من معلومات تاريخية يمكن أن نطمئن إلى أن العربية دخلت دارفور فى فترة مبكرة وذلك أنها كانت بجانب لغة الفور تمثل لغة البلاط بمملكةالفور (١٤) . ويفهم من هذا أن العربية سبقت قيام المملكة الحضور إلى المنطقة ، إذ يرجع تاريخ دخول العرب إلى دارفور إلى القرن الرابع عشر الميلادى، أما قبل ذلك فقد وفدوا إليها كأفراد لقصد التجارة أو الحماية.

وتكون بتدفق العرب على دارفور قبائل البقارة فى الجنوب ورعاة الإبل فى الشمال (١٥) .

وقد كان هناك شبه اتفاق عند المؤرخين وغيرهم الذين تناولوا موضوع الجهات التى دخل منها العرب إلى دارفور . فقد ذكرت كل الاتجاهات عدا الجنوب . ونرى زن المحصلة النهائية لهذا الأمر يمكن إجمالها فى الآتى : وهى أنهم دخلوا إلى دارفور من الشمال والغرب والشرق ، ودخولهم من الشرق لم يكن بذى الأثر الجوهرى ، بينما دخولهم من الغرب كان لهم عظيم الأثر فى حياة الدارفوريين ، أما طريق الشمال فقد كان تغلب عليه التجارة .

مهما يكن من أمر فإن العرب دخلوا دارفور من جهات عدة يحملون معهم الدين الإسلامى والثقافة العربية الإسلامية واللغة العربية وأسبح للغة العربية فى دارفور شأن عظيم لارتباطها بالدين الإسلامى الذى وجد موطئ قدم فى البيئة التى كانت تنتشر فيها الوثنية .

ومما ساعد على انتشار العربية فى دارفور أسباب عديدة منها : بروز مدينة الفاشر العاصمة السياسية والدينيةوالاقتصادية التى غدت إذ ذلك تجتذب تحت رعاية السلاطين أعداد هائلة من العلماء من مصر والحجاز وغيرها ، ومن طلاب الدين والدينا ولا شك أن لهولاء دوراً مباشراً فى نشر الإسلام واللغة العربية(١٦). ومنها أيضاً نزوح كثير من القبائل العربية إليها للاحتماء بأراضيها الواسعة، وهذه القبائل ترجع إلى خلفيات مختلفة مما ساعد على تنوع اللهجات العربية فيها ، ومرد هذا النزوح أن هذه المنطقة لم تنشأ فيها ممالك فى قوة الممالك التى ظهرت فى شمال ووسط السودان ، إذ حالت الظروف دون قيام دويلات قوية، وهى بهذه الصفة تعتبر جنة فى حساب عرب البادية الدين ينفرون بطبعهم من أية سلطة مركزية (١٧) .

كيفما كان الحال فإن للغة العربية أقداما راسخة فى دارفور. وعلى الرغم من وجود كثير من القبائل العربية بالمنطقة إلا أنها تصنف لغويا بمنطقة للتداخل اللغوى لأنها أيضا تعج بالقبائل غير العربية (الدارفورية وغرب ووسط الإفريقية وغيرها) . وعندنا أن أنتشار العربية فى دارفور على مر الحقب على حساب لغات المجموعات القبلية التى دخلت الإسلام مرده إلى قوة وفعالية العامل الدينى وأثره فى نفوس أصحاب تلك اللغات ، وبهذا تختلف دارفور قليلا أو كثيرا عن مناطق التداخل اللغوى الأخرى فى السوادن كجنوب النيل الأزرق وجبال النوبة ، إذ قد يكون انتشار العربية مرتبطاً بأسباب أخرى ليس من بينها هذا العامل الذى يعد حاسماً وجوهرياً يتضافر مع عوامل أخرى .

هل لنا أن نسأل بعد هذا العرض المسهب عن ماهية وضع اللغة العربية فى دتوفور ؟

حاول عدد من الدراسات المتخصصةالإجابة عن سؤال ، حيث يرى ثلوال أنها تقوم بدور اللغة الوسيطة فى أنحاء ولاية دارفور [١٨] . وترى أنجيليكا ياكوبى أن العربية تستخدم لغة للتواص بين المجموعات متعددة الأغراق فى دارفور ، وأنها فى حالة تزايد مستمر لاستخدامها كلغة أم ، فالولدان يفضلان تعليم الأطفال العربية فى فترة مبكرة ليستفيدوا منها عندما يلتحقون بالمدارس ، ولتعود عليهم بالنفع عندما يلتحقون بحرفة التجارة . كما ترى ياكوبى أيضا أن تسارع انتشار اللغة العربية يبرز فى شرق وجنوب دارفور على نحو أخص، وقد أدى هذا إلى زن تكف كثير من القبائل عن التحدث بلغاتها الأصلية كالبرد قد والبرتى والميما والبيقو [١٩] . وأغلب الظن أن انتشار اللغة العربية على حساب

اللغات المحلية لا يتم بصورة معتمدة ، بل هو التحول الذى يحدث فى ظروف الأغلبية مع الأقلية أوسيطرة ثقافة على أخرى .

وفى دارسة أخرى لايستبعد دورنبوس أن العربية بعد أن أصبحت لغة التواصل ولغة التجارة التعليم أن تصبح اللغة الأم لأغلبية سكان دارفور بلا منازع [٢٠] وهو بذلك يحكم لها بمستقبل باهر انتشار وتمددا ويذهب جابر محمد جابر فى بحث له إلى أن الغالبية العظمى لسكان دارفور تتحدث لغة واحدة هى العربية حيث يتحدثها ٨٢ ٪ ، والعدد المتبقى يتحدث لغتين إحداهما العربية[٢١]. غير أنه لا يذكر لنا كيف تحصل على هذه النسبة .

أما دارسة هاشم محمد محمد صالح بمنطقة نيرتتى فتوضح بجلاء أن اللغة العربية تنتشر من خلال حركة تغير مستمرة فى الإوضاع اللغوية باتجاه الاستخدام المتزايد للغة العربية . ويتمثل هذا الانتشار فى سيطرة اللغة العربية الكاملة على مجالات التواصل بين الجماعات وفى الاستخدام المتزايد لها من قبل أطفال المجموعات العرقية غير العربية داخل البيت وتحول بعضهم نحو اتخاذها لغة أولى بدلا عن اللغة المحلية [٢٢]. وإذا علمنا أن نيرتتى إحدى قرى الفور المتيمزة - ولغة الفور تسند على إرث ثقافى وسياسى تلدين - لأدركنا أن اقتحام العربية لا يتمحور فى مناطق اللغات ذات الثقل الديمغرافى القليل فحسب ورنما يتجاوز ذلك إلى واحدة من أكبر اللغات المحلية فى دارفور إن لم تكن أكبرها إطلاقا .

وإذا ولجنا دار الزغاوة (كنموذج للدارات القبلية الحصينة فى دارفور) نجد أن العربية سيدة الموقف فى هذه الدار وتتمتع بوضع خاص بحيث لا تنافسها لغة أخرى فى هذا الأمر حتى لغة الزغاوة نفسها ، لذا تظل العربية فى حالة تمدد ، بل

أكثر من ذلك بحيث يتوقع لها المزيد من الانتشار ، وربما يؤدى هذا إلى إنهاء دور لغة الزغاوة فى المنطقة كلغة للتواثل بين الزغاوة أنفسهم ، ومما يدل على ذلك أن هناك مناطق فى دار الزغاوة لا يتحدث أفرادها لغة الزغاوة وإنما يستخدمون العربية كلغة بديلة لها (٢٣) ويفهم من هذا أنه على الرغم مما عرف عن ازغاوة من تشبث بلغتهم وتراثهم لم يشفع لهم كل ذلك فى انسراب هذه اللغة من بين أيديهم وتبنى لغة أخرى تقوم لهم بدور التواصل مع الجامعات الأخرى وفيما بينهم أنفسهم .

وعليه يمكن القول إن دافور كجزء من السودان وكمنطقة للثنائية اللغوية تشهد تحولا من هيمنة اللغات المحلية إلي هيمنة اللغة العربية ، وهذه العملية توكد حقيقة تاريخية ثابتة وهى تقدم العربية حساب اللغات المحلية وفقا لكل المسوحات اللغوية - الاجتماعية التى تناولت رصد أنماط السلوك اللغوى فى السودان (٢٤) .

عرفنا من عرضنا السابق وضع اللغة العربية فى دارفور فماذا عن وضع اللغة المحلية فى دارفور خصوصاً اللغات النيلية - الصحراوية فى الحياة العامة ؟

عادة ما يعنى مصطلح الحياة العامة فى عزف علم اللغة الاجتماعى:

الإعلام والإدارة والمحاكم وماشابهها . والذى يمكن الإشارة إليه فى هذا هذا المجال - ابتداء - أن الحياة العامة فى دارفور وربما تكون هذه المنطقة ليست استثناء) تشهد سيطرة محكمة للغة العربية ، فلا مجال للغة محلية للاستخدام فى المحاكم والإدارة (٢٥) - أما الإعلام فكان يلجأ فيه للغات المحلية لا سيما

فى الإذاعة والتلفزيون المحليين فى حالات خاصة وعلى نطاق ضيق جدا مثل حدوث مشكلة قبلية أو إشكال أمنى [٢٦] ويلاحظ ههنا أن الاستعانة باللغات المحلية طابعها توظيف هذه اللغات وفقا للإدارة السياسية . ومن أمثلة اللغات التى كان يلجا إليها لغة الفور والمساليت والزغاوة وذلك نسبة لما تمثله جمعيها من ثقل ديمغرافى .

وعلى ذلك يمكن الاستنباط بأن اللغات النيلية - الصحراوية كجزء من اللغات المتحدثة فى دارفور -لاتجد فرصا فى الحياة العامة لاسيما فى الإدارة والمحاكم ، بينما تجد فى الإعلام النذر اليسير. وكل هذا يشى بأن هذه اللغات ستفقد عنصر الاستمرارية تدريجا . وأغلب الظن أن المرحلة الحالية التى تمثل حالة كمونها داخل البيت فى أحسن الأحوال- كما أسلفنا الذكر - وتتحدثها فئة عمرية محددة تمهيد لتوقف التحدث بها نهائياً .

لنرجع الآن إلى الموضوع الذى تصدرنا به هذا الجزء من هذه الدراسة وهو وضع اللغات النيلية -الصحراوية فى مواجهة اللغة العربية .

نستطيع أن نجمل القول بأن اللغة العربية ظلت فى مواجهة مستمرة مع اللغات المحلية فى السوادن، وذلك منذ دخول العرب بلغتهم إليه . وقد استطاعت العربية بعد طول صراع أن تدحر عددا منها . وقد استطاع البعض الآخر من هذه اللغات أن يتهادن معها مهادنة مؤقتة ينتظر دوره فى سلم الانقراض التدريجى . وكان هذا أيضا حال اللغات النيلية - الصحراوية فى السودان مع مختلاف النسب .

وإذا انتقلنا إلى اللغات النيلية الصحراوية فى دارفور سنجد أنها ظبت فى مواجهة غير متكافلة فى العربية إذ استطاعت العربية مدعومة بأسباب لا علاقة

لها باللغة نفسها ، وأسباب وراءها الاقتصاد والسياسة والبيئة والأيديولوجيا وغير ذلك ، استطاعت أن تحجم دور تلك اللغات تمهيداً لاجتثاثها والقضاء عليها. ومن هذه الأسباب ما يلى :

أولاً : الجفاف والتحصر والزحف الصحراوى : وهى كوارث بيئية ضربت دارفور لاسيما فى الثلاثة عقود الأخيرة من القرن الماضى مما أدى إلى حركة نزوح وزحف من المناطق الأصلية التى سكنتها القبائل الدارفورية عبر حقب التاريخ والتى كانت توفر بيئة متجانسة لها تجد فيها اللغة المحلية مساحة واسعة للتحديث بها . فأصبحت المناطق الأصلية بفعل هذه الكوارث تفقد قاطنيها تدريجيا ليتمركزا حول المدن الكبرى بالولاية كالفاشر ونيالا والجنين أو ليبدأوا رحلة شاقة تجاه العاصمة القومية .

ثانياً: ظاهرة نشأة المدن وتوسعها : وهذه الظاهرة كانت إفرازا لازم كوارث الجفاف والتصحر والحرب . إذ هناك توسع هائل للمدن بدارفور بل أخذت الأحياء الجديدة تتضاف إلى المدن بصورة متسارعة لايكاد يحكمها ضابط. وذلك أن هذه المدن أخذت تستقبل موجات كبيرة من النارحين الباحثين عن الخدمات والأمن بعد تخلخل الأوضاع الأمنية والاقتصادية فى البيئات الأصلية . وقد أدى هذا الحراك الديمغرافى إلى خلق وإضافة تركيبة سكانية ولغوية جديدةومعقدة فتريفت بذلك المدن الكبرى فى دارفور (٢٧) .

ثالثاً : نشؤ الأسواق ذات الطابع الشعبى : وهى أسواق تكتظ بتجمعات سكانية متزاحمة لقبائل مختلفة إثينا وثقافيا ولغويا احتاجت للغة للتواصل فيها بينها بيعا وشراء وتواصلا .

رابعاً : التوسع فى التعليم بمستوياته المختلفة (الأساس والثانوى الجامعى الذى تم تعريبه موخراً) وقد ساعد فى معدل نشر العربية، إذ إنها لغة التدريس ولا يتعلم متعلم إلا بها .

خامساً : تأثير الآلة الإعلامية بوسائلها المختلفة (إذاعة وتلفزيون وصحف وأطباق فضائية) (٢٨) .

سادساً : انتقال المجتمع الدارفورى فى معاملاته المحلية الضيقة إلى آفاق أكثر انتفاحاً بمجتع المدينة وبالتالى بمجتمع السوادن القومى .

سابعاً : الحرب القائمة الآن فى دارفور وما تحمله من إفرازات تقلب الولاية رأسا على عقب .

نستنتج مما سبق ذكره من أسباب داعمة للغة العربية فى الانتشار والسيطرة على اللغات المحلية فى دارفور - زن اللغات النيلية - الصحراوية فى مواجهتها مع العربية تقود معركة خاسرة ، المنتصر فيها تسلح بكل عدة وعتاد والمنهزم فيها أعزل لايقوى على شئ إن المستقبل أمام العربية تسنده قوة دفع ذاتية لاتفتر، كما تنسنده سياسات لغوية تتبناها الدولة السودانية منذ عقود بصورة مباشرة وغير مباشرة (٢٩) . وعلى ضوء ما ذكرنا فهل يمكن وضع تصور نظرى لمستقبل اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور انطلاقا مما ت عرضه فى هذه الدراسة ؟

مستقبل اللغات النيلية - الصحراويةفى دارفور :

هل بالفعل يمكن تصور مستقبل للغات النيلية - الصحراوية فى دارفور على نحو علمى منطلقه دارسة هذه اللغات ماضيا وحاضراً ؟ أم أن هذا النوع من التصور ضرب من الفرضيات الوهمية ؟

الحق أن إدارج هذا النوع من الأسئلة التى يطلع للأجابة عنها بعض الدراسات اللغوية الاجتماعية - أصبح علماً تفسح له الدراسات المستقبلية ميادينها ومناهجا الخاصة وذلك بعد أن أصبحت لهذه الدراسات التى تعنى بالمستقبل مداخلها العلمية ومناهجها البحثية . وقد أخذت تعبر بأن المستقبل لا ينشأ من فراغ وإنما تتحدد معامله وتتبلور أشكاله من خلال قضايا الواقع ، ومن خلال بزوغ إشياء كانت الجنيهات لها موجودة فى أرض الواقع [٣٠].

وانطلاقا من هذا المفهوم الذى قدمناه ، واستنادا على ما تم تناوله من موضوعات تتصل بمتضى وواقع (حاضر) اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور يصبح بالإمكان استشراف مستشقبل هذه اللغات ولو على المستوى النظرى الجدلى .

إن أول ما يقال فى هذا المضمار هو أن مستقبل اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور يختصر فى ثلاث لغات هى الفور والمساليت الزغاوة [٣١]، وهى لغات يتوقع لها أن تستمر متحدثة لأطول فترة ممكنة للغات محلية فى دارفور وذلك تم تحديده لاعتبارات منها أنها :

١- تكاد تكون متحدثة فى جميع إنحاء دارفور ولاسيما فى المدن الرئيسة .

٢- تمثل الثقل الديمغرافى الذى يسمح لها بالتوظيف فى مجالات عديدة .

٣- بعض أصحاب هذه اللغات ذوو تطلعات سياسية ، مما حدا بالاهتمام بلغاتهم ومحاولاتهم الجادة لخاق أبجديات لها مثلاً .

٤- ضمنها لغتان هما : الفور والمساليت تعدات ضمن أكثر ١٣ لغة محلية غير العربية تمثل اللغات الكبرى المتحدثة فى السودان .

مما يجدر التطرق إليه هو أن فهمنا لمستقبل هذه اللغات يمكن تصوره نظرياً واستشرافه جنينياً من خلال محددات أسياسية لعل أهمها :

أولاً : يمكن فهم المستقبل لهذه اللغات من خلال السياق العام لأنماط الاستخدام اللغوى فى السودان على جهة العموم ، وهو أن اللغات المحلية تشهد ترجعاً كبيراً وانحساراً متسارعاً عن مواقع استخدامها فى مقابل تقدم كاسح مهيمن للغة العربية ، والدارفور (على الأخص فى شرقها وجنوبها) خصوصة فى هذا المجال تتميز بها مناطق الثنائية اللغوية والتداخل اللغوى فى كونها أكثرها تقبلا للثقافة العربية الإسلامية التى تتجلى مظاهرها فى انتشار الخلاوى وهى خصوصية يسندها العامل الدينى .

ثانياً : يمكهن فهم المستقبل لهذه اللغات من خلال السياسات اللغوية التى ظلت تتبع فى السودان لاسيما فى الخمسة عقود الأخيرة من القرن الماضى . ولا يخفى ما تقوم به السياسات اللغوية فى تحديد مستقبل اللغات . والذى يلاح عليها فى السودانَ أنها ماتزال تلعب دوراً مباشراً فى دعم العربية ، والذى يتبدع فى قصر هذه السياسات فى أطر التنظير وعدم إنزالها إليها إلى أرض الواقع ركوناً إلى ضعف التنفيذ وضآلة الإمكانات ، فقط حبيسة الدساتير المتتالية والاتفاقيات المتعاقبة (ولاشك أن العربية استفادت وتستفيد من هذا الوضع المتفرد) .

ثالثاً : يمكن فهم المستقبل لهذه اللغات من عدم وجود فرص لها - وقد يكون هذا أحد إفرازات السياسات اللغوية المتبعة - فى الحياة العامة مثل الإعلام والإدارة والمحاكم وكذلك التعليم . بل إن الاتصال البينى (بين القبيلة الواحدة بلغتها المحلية) قد تراجع فى أحسن الأحوال إليالاستخدام لها بالمنزل

ناهيك عن الاتصال البين - قلبى (بين القبائل المتعددة بلغة محلية) . وهذا يشير إلى عدم وجود لغة تواصلية أو مشتركة من بين هذه اللغات غير ما ذكرنا من قبل من أن لغة الفور تتحدثها قبيلتان غير الفور ، هما الداجو والسنير واللتان تقطنان بوادى كاجا ووادى أزوم ، وقد كان هذا مرده التزاوج بين القبيلتين مع الفور [٣٢] . وغير ما ذكرنا فى أطروحاتنا عن مدينة الفاشر حيث أن بعض أفراد القبائل فى دارفور تتحدث بلغة أو لغات غيرها [٣٣]. ومن المعلوم بالضرورة أن اللغة متى ما أنسحبت من أداء وظيفتها فى الحياة العامة كان ذلك أوعى إلى انحسارها .

رابعاً : يمكن فهم المستقبل لهذه اللغات من خلال حقيقة تاريخية ثابتة وهى أن عدد هذ اللغات فى تناقص مستمر إذ انقرض عدد معتبر منها كالبرتى والقمر والميما والبيقو والبرقد فى القرن الماضى . وجميعاً بالتالى يعكس استعراباً كاملاً أو شبه كامل ، وآية ذلك أن - مبلغ علمنا - فيها أكبر معدل للانقراض العام للغات السودانية المحلية .

بَقى أن نقول إن التصورالنظرى لمستقبل اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور يمكن تلمسه من خلال تلك الأسباب التى ذكرناها مجملة ، وهو تصوريعكس إنزواء كاملا لهذه اللغات يقابلة انديا ح كامل للغة العربية فى السودان عبر حقب من الزمن قد لا تكون بعيدة .

خـاتمـة

نلخص مما سبق تناوله فى هذه الدراسة حول اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور أنه يتحتم علينا نظريا - إذا استمرت الأوضاع على ما هو عليه الحال - إسقاط كل تصور مستقبلى لاستمرار حيوية هذه اللغات فى الإستخدام والتواصل فى ظل هيمنة اللغة العربية وسيطرتها وإغلاق كل نافذة أمام هذه اللغات. كما يستبعد كل تصور لوجدة ثنائية لغويةتتعايش فيها هذه اللغات مع اللغة العربية، وهى الحالة الراهنة التى عليها ما تبقى من هذه اللغات التى يستخدمها الناس فى نطاق ضيق أغلبه داخل المنزل ، ويستخدمون اللغة العربية فى المجالات الرسمية وغير الرسمية . وفى رأينا أن هذه الحالة انتقالية لن تصمد بأية حال من الأحوال أمام اندفاعية العربية .

كما نخلص إلى ما خلص أحد الباحثين من قبلنا حين ذهب إلى أنه فى إطار عملية السريان التاريخى المتسارع للغة العربية والمدعوم اقتصاديا وسياسيا وأيدولوجيا ، يضحى الحديث عن تطوير اللغات المحلية فى السودان والمحافظة عليها وحمايتها من الأندثار ضربا من ضروب التفاؤل [٣٤] ويصدق هذا مع توالد الظروف المساعدة لهيمنة العربية وتجددها - على جميع اللغات المحلية فى السودان بما فيها اللغات قيد الدراسة .

الهوامش والاحالات المرجعية

1- See : Doombos , P. (1984) : "Language use in Western Sudan' . a paper presented to Ist International Lunguistics Conference (13-16 Oct) Khartoum I.A.A.S., University of Khartoum , P.(1)

2- See : Thelwall , R.S.(1978) : Aspects of Language in the Sudan . Cleraine The New University of Ulster , P.p. (8 - 9).

٣- أنظر : ثيـويولد ، أ. ب. (١٩٩١) : على ينار آخـر سلاطين دارفـور ، ترجمـة : صديق إبراهيم (نسخة مكتوبة باليد ومصورة) ، ص (٣١) .

4- See : Abu - Bakr , Y.A. and A. Abu - Manga (1997) : "Language Situation and Planning in the Sudan ", a paper presented to the Intergovernmental Conference and Language Policies in Africa (17 - 21 March) IIarare, Zimbabwe , P. (3).

5- See : Hurreiz , S.H. and H. Bell (1975) (eds) : Directions in Sudanese Linguistics and Folklore , Sudanese Studies Library , No (4) I.A.A.A., Khartoum , Khartoum University Press .

٦- انظر : مثلا هاشم محمدمحمد صالح (١٩٨٧) : الأوضاع اللغوية فى نيرتتى ، دارسةفى التحول اللغوى - الاجتماعى ، رسالة ماجستير ، الدراسات الإفريقية والآسيوية ، جامعة الخرطوم ، وأنظر أيضاً : كمال محمد جاه ا& (٢٠٠١) : الأوضاع اللغوية فى مدينة الفاشر دراسة فى التحول اللغوى - الاجتماعى ، رسالة دكتوراه ، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية ، جامعة الخرطوم .

٧- انظر : دالى د. (١٩٨٠) : « خريطة لغوية لإفريقيا » تاريخ إفريقيا العام ، المنهجية وعصرنا ما قبل التاريخ ، المجلد الأول ، إشراف : ج . زيربو (اليونسكو) ، تورينو (إيطاليا) : مطابع كانالى ، ص (٣٢٢) .

8- See : Bell , H. (1970) : Place Names in the Belly of Stones , Linguistic Monograph Series No (5) , Sudan Research Unit , Faculty of Arts , Uofk., Doombos , P. (1984) :, Opcit , and Tucker , A.N. and M.A. Bryan (1956) : The Non - Bantu Languages of North - East Africa , London , O.U.P.

٩- يختفى من أسرة اللغات الإفريقية فرعام فى دارفور وهما الكوشى والمصرى القديم المنقرض أصلا.

١٠- يوجد بدارفور إعداد من الطوارق الملثمين الذى يسمون محلياً « بالكنين » . وقد استوطن بعض هؤلاء مدينة الفاشر وبعض القرى حولها . قدم الطوارق إلى دارفور فى مفتتح القرن العشرين هروباً من المستعمر الفرنسى .

١١- الفرعان لا تمثلهما لغة فى دارفور هما الكوما والسنغاى .

12- See : Abu - Bakr , Y.A. and A. Abu - Manga (1997) : , Opcit ,P.(3)

١٣- انظر : ج. (١٩٨٠) : « تصنيف لغات إفريقيا » تاريخ إفريقيا العام ، مرجع سابق ، ص (٣١٤) .

١٤- انظر : عبد الرحمن موسى أبكر (١٩٨٩) : «انتشار الإسلام واللغة العربية العربية فى دارفور» ، نقله إلى العربية : بشير عبد الواحد بشير ، دراسات إفريقية ، إصدار : مركز البحوث والترجمة ، جامعة إفريقيا العالمية ، العدد (٥) ، أكتوبر ، ص (١٣٦) .

١٥- انظر : موسى المبارك الحسن (١٩٧٠) : تاريخ دارفور السياسى (١٨٨٢) - (٨٩٨!) ، الخرطوم : أو الطباعة بجامعة الخرطوم ، ص (٢١) .

١٦- انظر : يوسف أحمد عبد البارى (١٩٩٣) : « الفاشر مدينة محورية» ، صحيفة دارفور الجديد ، تصدر عن ولاية دارفور ، العدد (٦٠) ، ص (٤) .

١٧- انظر : عبد الرحمن موسى أبكر (١٩٨٩) : ، مرجع سابق ،ص (١٣٣) .

18- See : Thlwall , R.S. (1978) :, Opcit , P. (9).

19- See : Jakobi , A. (1999) : "Current research on language of Darfur a paper presented to the Sudanese - German Conference on Sudan on Sudan studies with special reference to Darfur , Al - Fashir (6 - 8 Oct.) University of Al-Fashin ,P.(1)

20- See : Doornbos , P. (1984) , P.(1) .

٢١- انظر : جابر محمد جابر (٢٠٠٠) : التنوع الثقافى والتداخل اللغوى ، أم درمان : دار جامعة القران الكريم والنشر ، ص (٧٢) .

٢٢- انظر : هاشم محمد محمد صالح (١٩٨٧) : مرجع سابق .

٢٣- انظر : عصام عبد الله على (٢٠٠٤) : « الزغاوة : اللغةوالتاريخ » ، أوراق من منتدي مركز البحوث والدراسات الإفريقية ، المجموعة الأولى ، إصدارة رقم (٤٦) تحرير : كمال محمد جاه الله (د.ن) ، ص (١٠٧) .

٢٤- لق قمنا بعرض عدد من الدراسات التى تناول موضوع المسح اللغوى فى السودان ، انظر : كمال محمد جاه الله (٢٠٠١) مرجع سابق ، ص (١٢ - ٢٠).

٢٥- مقابلة مع الملك رحمة الله محمود ومعه شيخان كبيران بمكتبه المحكمة الشرعية بالفاشر بتاريخ ٢٧/ ١٠/ ١٩٩٩ م .

٢٦- استقى الباحث هذه المعلومات من زيارته لإذاعة وتلفزيون ولاية شمال دارفور بالفاشر ولقائه بالمسؤولين هما بتاريخ ٢٧/ ١٠/ ١٩٩٩م .

٢٧- يمكن تطبيق ما ذكرنا على مدينة الفاشر انظر : كمال محمد جاه الله (٢٠٠١) ، مرجع سابق ، ص (٦٤ - ٨٦) .

٢٨- أثناء زيارتنا لمدينة الفاشر فى مهمة بحثية رأينا أن بعض الجهات مثل الحدائق العامة تفرض فيها فى الغالب قنوات معينة كالجزيرة ، والـ MBC ، ونتوقع أن تكون قد أضيفت فيما بعد « العربية» لأسباب لانكاد نتحقق منها .

٢٩- انظر : كمال محمد جاه الله : « السياسات اللغوية فى السودان مع التركيز عليعهد حكومة الإنقذ الوطنى » ، غير منشورة .

٣٠- انظر : محمد بريس (٢٠٠٠) : دراسة المستقبل حديث حول المفهوم ، اتجاهات مستقبلية ، تصدر عن مركز دراسات المستقبل الإسلامى ، وإيران : قم ، العدد (٤) ، ص (١٤) .

٣١- لغة الزغاوة لم تذكر ضمن أكثر ١٣ لغة محلية ذات أكثرية متحذثة فى السودان ، ولكن دراستنا لمدينة الفاشر المشار إليها سابقاً ترى أن هذه اللغة معتبراً يحتاج إلى مزيد من الدراسة .

32- See : Thelwall , R.S. (1978) : , P.(9).

٣٣- أنظر : كمال محمد جاه الله (٢٠٠١) ، مرجع سابق ، ص (١٠٩ ١٢٢) .

٣٤- انظر : عشارى أحمد محمود (١٩٨٥) : » جدلية الوحدة والتشتت فى قضايا اللغة الواحدة الوطنية فى السودان « المجلة العربية للدراسات اللغوية، إصدار :معهد الخرطوم الدولى للغة العربية ، العدد الأول المجلد الرابع ، أغسطس ، ص (١٢٢ - ١٢٣) .